الدكتور نايف خرما
"أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة"

(الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978م)
340 صفحة من سلسلة «عالم المعرفة»

محمد ياسر سليمان
قسم علم اللغة
جامعة سانت اندروس ــ اسكتلندا

يضم الكتاب المومى اليه أعلاه، خمسة فصول تتناول بالعرض والتحليل جوانب مختلفة من أوجه علم اللغة الحديث، تسبقها مقدمة قصيرة يحدد فيها المؤلف الهدف من الكتاب، ويشرح فيها بعض الصعوبات التي تواجه الباحث في موضوع علم اللغة، وخاصة بالعربية.

أما **الهدف** من الكتاب، فهو اعطاء القارىء العربي المثقف نبذة سريعة عن طبيعة وأهداف الدراسات اللغوية الحديثة، كما تجرى هذه الدراسات في جامعات الغرب ومؤسساته الأكاديمية، دون الاسترسال في بحث تطورها تاريخيا، ودون الغوص في خصوصياتها بشكل قد يفقد القارىء الرغبة في قراءة الكتاب باكمله، أو بمحاولة الاطلاع الأعمق على هذه الدراسات في المستقبل. مما لاشك فيه، ان مهمة تأليف كتاب من هذا النوع، هي مهمة صعبة، وبحاجة الى عناية كبيرة في اختيار وترتيب، ومعالجة المادة العلمية من خلال عرضها وتحليلها ونقدها، وابراز نتائجها.

أما **الصعوبات** التي تواجه الباحث في علم اللغة بصورة عامة، فيمكن تلخيصها بأمرين اثنين : الأمر **الأول** هو ان اللغة ذاتها في دراسة (اللغة) أي في الحديث عنها، وفي تسجيل وعرض نتائج بحثه، ثم دراسته لطبيعتها ووظائفها وتركيبها البنيوى. وعلى الرغم من أهمية هذه النقطة، الا ان المجال لا يسعني هنا لاعطائها حقها من الشرح والتعليق، وعليه فسوف احجم عن متابعتها. أما الأمر الثاني فانه يتعلق بتعدد مفاهيم كثير من مصطلحات علم اللغة الحديث، حتى ان مفاهيم بعض هذه المصطلحات، يكاد لا يمت بصلة على وجه الاطلاق لبعض المفاهيم الأخرى لنفس المصطلح أو المصطلحات، وعلى سبيل المثال لا الحصر فان مفهوم مصطلح ــ الفونيم ــ *(Phoneme)* في الدراسات اللغوية الحديثة عند اللغوى الامريكي ــ تواديل ــ *(Twaddell)*، يختلف اختلافا جذريا عن مفهومه عند كل من عالمي اللغة ــ دانيال جونز ــ*(Daniel Jones)* البريطاني، و ــ بلومفيلد ــ *(Bloomfield)* الأمريكي، علما انه بالرغم من تقارب وجهات نظر هذين الأخيرين، الا ان هناك فروقا حاسمة بينهما حول مفهوم هذا المصطلح..

ان هذا الاختلاف في تحديد مفهوم واحد لنفس المصطلح عند اللغويين المحدثين، ناتج عن الاختلاف في المناهج التي يتبعها هؤلاء الباحثين في دراسة مادة بحثهم، وعن الاختلاف في النتائج التي يبغون الوصول اليها في دراساتهم. ان تعدد مفاهيم نفس المصطلح الواحد.. يتطلب أمره من الباحث، اليقظة والحذر الشديدين في الحديث أو الكتابة عن الدراسات اللغوية الحديثة لكي لا يجانب الصحة والصواب فيما يقول أو يكتب. لقد أشار الدكتور خرما إلى هذه الصعوبة اشارة سريعة في مقدمة كتابه، وقد نجح إلى حد كبير بتجنب أخطارها.

يشير المؤلف في مقدمة كتابه أيضا إلى صعوبة أخرى، حول كتابة دراسة لغوية حديثة باللغة العربية حين ينعدم توافر

المصطلحات الجاهزة والمرادفة تماما لكثير من مصطلحات هذه الدراسات باللغات الأجنبية، وخاصة بالانجليزية. ان هذه الصعوبة بطبيعة الحال، لا تعني أن اللغة العربية عاجزة بحكم طبيعتها، عن تزويد الدراسات بمرادفات لكل مصطلحات علم اللغة الحديث، كما هي واردة باللغة الانجليزية مثلا. ان اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية، قادرة لأن تعبر عن كل مفاهيم علم اللغة الحديث، سواء كانت هذه المفاهيم خاصة باللغة بصورة عامة، أو بلغة معينة على وجه خاص. ان مصطلحات أي علم من العلوم، ليست الا اسماء تدل على مفاهيم هذا العلم لا أكثر ولا أقل. ان أية لغة، مهما بلغ أهلها من التحضر، فهي قادرة على ان تزود الباحث بكل المصطلحات التي قد يحتاج اليها في بحثه ودراسته، ومهما كان موضوع تخصصه.

مما لاشك فيه ان ملاحظة المؤلف المذكورة آنفا، لهي على قدر كبير من الخطورة والأهمية.. وان مهمة ترجمة كل مصطلحات علم اللغة الحديث من اللغة الانجليزية، مثلا، الى اللغة العربية، هي مهمة شاقة جدا، خاصة وان الدراسات اللغوية المعاصرة في حالة تطور مستمر، يصل إلى درجة الثورة العلمية احيانا، ونظرا لأن اغلب هذه المصطلحات لها أكثر من مفهوم واحد، بناء على النظريات اللغوية التي ترد فيها، أو في سياقها كما توضح اعلاه. ومن الجدير ان اذكر بأن هذه العوامل لا تشكل تبريرا مقنعا لتأخرنا في مجال ترجمة مصطلحات علم اللغة الحديث الى اللغة العربية، اذ ان المطلوب من الجامعات والمؤسسات الاكاديمية في الوطن العربي أو في خارجه محاولاتها لتذليل هذه العقبة التي تقف في وجه كثير من الباحثين في علم اللغة الحديث باللغة العربية، خاصة وان هذه اللغة قد اثبتت جدارتها على مر العصور كأداة للتعبير عن الفكر الانساني بكافة أشكاله.

يتناول المؤلف في الفصل الأول من كتابه في دراسة عابرة بعض فوائد الدراسات اللغوية الحديثة من وجهة النظر التطبيقية، فيشرح اهميتها في تعليم اللغات القومية والأجنبية، ثم عملية تعليمها للمصابين ببعض العاهات الجسمية أو الاضطرابات الفسيولوجية المتعلقة باللغة أو الكلام، أو في مساعدتهم في اكتساب لغتهم الأم. كما يشير المؤلف إلى أهمية هذه الدراسات في موضوعي الترجمة العادية والترجمة الآلية، وفي مجالي السياسة والاعلان التجاري، وفي مجال الاتصالات السلكية واللاسلكية.

هذه هي بعض فوائد الدراسات اللغوية الحديثة من الناحية التطبيقية، الا أن هذه الفوائد، مهما عظمت أهميتها ومهما بلغت قيمتها الا انها لا تشكل بحد ذاتها تبريرا كافيا لأهمية علم اللغة الحديث، كما يشير المؤلف في مستهل هذا الفصل. ان اهتمام العديد من علماء اللغة ينصب على اللغة كمادة أو موضوع للدراسة والبحث **بحد ذاتها**، دون الاهتمام المباشر بجدوى هذه الدراسات من الناحية التطبيقية العملية. ان هذه الفئة من العلماء يسمون بعلماء اللغة النظريين، ولدراساتهم في طبيعة اللغة، وتركيبها البنوى الداخلي، ووظائفها المتعددة، أهمية بالغة من وجهة النظر العلمية البحتة.

يشير المؤلف في هذا الفصل من ناحية أخرى الى علاقة اللغة بكل من الكلام والكتابة كونهما أهم مظهرين من مظاهر اللغة الانسانية على الاطلاق.. ويمكننا ان نضيف في هذا السياق بأن اللغة سابقة لكل من الكلام والكتابة من وجهة النظر المنطقية. ان معرفتنا للغة من اللغات، ضرورة اساسية لفهمنا لما يقال ويكتب فيها، كما انها ضرورة اساسية لمقدرتنا على التحدث والكتابة بها. ان «كلاما» بلغة لا نعرفها لا يعدو كونه مجرد اصوات لا غير لنا، وينطبق نفس الحال على «كتابة» بلغة لا نعرفها، حيث ان هذه الكتابة لا تتعدى كونها مجرد رموز على ورق لنا.

اضافة الى هذا وذاك، فان المؤلف يشرح في هذا الفصل بعض وظائف اللغة، وخاصة وظيفتها كوسيلة **للاتصال بين البشر**، والتي يعتبرها المؤلف اهم تلك الوظائف على الاطلاق (كتابه، ص 32). كما يذكر المؤلف «وظيفة» اخرى للغة هي وظيفة «**التأثير على الآخرين**، أو وظيفة **الاقناع** ...، أي اقناع الآخرين بالرسالة التي تبعث اليهم» (كتابه، ص 39). وفي معرض شرحه لهذه الوظيفة يقول المؤلف انها «تعتبر في نظر الكثيرين أهم وأخطر وظائف اللغة جميعا» (كتابه، ص 39). ان السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو اذا كانت وظيفة اللغة كوسيلة للاتصال بين البشر هي **اهم** وظائف اللغة جميعا — كما يقول المؤلف — (كتابه، ص 32)، فكيف تكون وظيفة الاقناع «أهم وأخطر» وظائف اللغة في نظر الكثيرين ؟ — كما يذكر المؤلف في مكان آخر — (كتابه، ص 39). ويبدو واضحا، ان هناك تناقضا في رأي المؤلف بخصوص أهمية وظائف اللغة، فاذا كانت وظيفة اللغة كوسيلة للاتصال بين البشر هي أهم وظائف اللغة حقا، فانه لا يمكن ان تكون وظيفتها كوسيلة للاقناع أهم وظائفها، اذا اردنا التحدث من وجهة نظر منطقية، الا اذا كان المؤلف يقصد بمصطلح «وظيفة» أمرين مختلفين في كل من الحالتين. واذا افترضنا انه لم يكن هناك تناقضا منطقيا بين النظرتين — آنفتي الذكر — الى وظيفة اللغة، فانه من الخطأ — كما أرى — ان توضع وظيفة اللغة كوسيلة للاقناع على نفس مستوى وظيفتها كوسيلة للاتصال بين البشر. ان وظيفة اللغة كوسيلة للاتصال بين البشر هي اهم وظائف اللغة الاساسية بلا منازع. اما الاقناع أو الامتاع، أو قول الحق أو الكذب، أو غيرها من الأمور الأخرى، فما هي الا أشكال

من الاتصال البشري أو انواعا من انواعه المتعددة، وضمن هذه الأشكال أو الأنواع من الاتصال البشري، يمكن ان يعتبر الاقناع على جانب من الخطورة والأهمية لا يساويه فيها اياً من الأشكال أو الأنواع الأخرى. ولكن هذه الأهمية ليست أهمية لغوية بحته، بل هي أهمية اجتماعية أو حضارية، فمن الممكن من الناحية المنطقية، ان نتصور مجتمعا بشريا يرى مهمة الامتاع عن طريق اللغة أكثر أهمية من مهمة الاقناع فيها.

يشتمل الفصل الثاني من الكتاب من جزئين رئيسيين :

يتضمن الجزء **الأول** عرضا سريعا للحدث اللغوى بمراحله الرئيسية الثلاثة مرحلة تكوين الرسالة اللغوية والتعبير عنها صوتيا من قبل المتكلم، والمرحلة الثانية هي انتقال الأمواج الصوتية عبر الهواء ووصولها عن طريق حاسة السمع إلى دماغ المستمع، وأخيرا مرحلة اعادة تركيب الرسالة من قبل المستمع. كما يشرح المؤلف في هذا الجزء علاقة الدراسات اللغوية الحديثة ببعض العلوم الأخرى، كعلم النفس وعلم الاجتماع، وببعض مواضيع الدراسة الأخرى كالادب والفلسفة والمنطق. وفي الجزء **الثاني**، يعطينا المؤلف نبذة تاريخية عن تطور الدراسات اللغوية قديما، كما يقدم لنا فكرة سريعة عن الاتجاهات اللغوية المعاصرة، مركزا على ما قدمه ــ سوسير ــ *(Saussure)*، في اوربا، و ــ بلومفيلد ــ *(Bloomfield)*، في امريكا خلال النصف الأول من هذا القرن.. ثم ما قدمه ــ تشومسكي ــ *(Chomsky)* وانصاره خلال العقود الاخيرة من هذا القرن. كما يعرض المؤلف بسرعة لبعض ما قدمته المدرسة اللغوية الاجتماعية التي يعد ــ فيرث ــ *(Firth)* البريطاني احد روادها الاوائل. واختتم المؤلف هذا الفصل بشرح مقتضب لما يسميه بالمنهج العلمي، لمدى انطباقه على الدراسات اللغوية الحديثة ــ في رأيه ــ .

بعد هذا، يمكنني ان اقف هنا قليلا ملاحظا لكل من النقطتين الرئيسيتين التاليتين الملاحظة **الأولى** تتعلق بشرح المؤلف للفرق بين اللغة والكلام عند ــ سوسير ــ *(Saussure)*، (انظر كتاب المؤلف، ص 108)، والعلاقة بين الكلام واللغة عند سوسير، وبينهما عند ــ تشومسكي ــ *(Chomsky)*. ان شرح المؤلف للفرق بين الكلام واللغة عند ــ سوسير ــ *(Saussure)* لا يتسم بالدقة والوضوح، رغم ان الخطأ هنا هو خطأ ــ سوسير ــ بالدرجة الأولى. اما فيما يخص مفهوم اللغة عند كل من ــ سوسير ــ و ــ تشومسكي ــ ، فيمكننا القول ان مفهوم اللغة عند ــ سوسير ــ يختلف اختلافا عن مفهومها عند ــ تشومسكي ــ ، على عكس ما يوحيه المؤلف عندما يقول «لقد اخذ تشومسكي بتقسيم سوسير للغة الى **لغة وكلام**...»

(كتابه، ص 105)، فاللغة عند ــ سوسير ــ ، كما يذكر المؤلف نفسه (كتابه ص 108)، هي ظاهرة اجتماعية إلى جانب كونها ظاهرة سيكلوجية مركزها الدماغ، اما عند ــ تشومسكي ــ فاللغة ظاهرة سيكلوجية بحته، كما يشير المؤلف عندما يقول بأن ــ تشومكسي ـوأنصاره اهملوا الجانب الاجتماعي من اللغة على اساس انه يتعلق «بالكلام الفعلي لا باللغة التي كانوا يعملون على استنباط قواعدها» (كتاب المؤلف، ص 121). واذا كان الأمر كذلك، أي اذا كان تشومسكي قد اهمل الجانب الاجتماعي للغة، فكيف نفسر قول المؤلف بما مفاده ان تشومكسي قد قدم كثيرا لعلم الاجتماع (كتاب المؤلف ص 120)، والتي لا نجد لها سندا فيما سبق أو فيما تلى من شرح المؤلف في كتابه لما قدمه ــ تشومسكي ــ لعلم اللغة الحديث، وللدراسات الانسانية بصورة عامة ؟

اما الملاحظة **الثانية**، فتتعلق بما يقوله المؤلف في هذا الفصل (كتابه، ص 120)، وفي مواضع اخرى عديدة من كتابه (صفحات 144، 257، 258)، بأن أصوات اللغة تنتظم في سلاسل بصورة معينة، لتكون مفرداتها، أو لتكون وحدات ذات معنى، سواء كانت هذه الوحدات «كلمات»، بالمفهوم العادي لهذا المصطلح، أو غيرها. فـ «كلمات» أو «مفردات» اللغة، وغيرها من الوحدات القواعدية كالمورفيم *(Morpheme)* أو الجملة، هي وحدات ذات شكل *(Form)* ومعنى *(Content)*، ولهذا لا يمكن ان يتم تكوين هذه الوحدات عن طريق انتظام الاصوات **فقط** بسلاسل تتبع ترتيبا لغويا معينا. ولنأخذ مثالا على ذلك كلمة «رجل» باللغة العربية. ان لهذه الكلمة شكلا معينا يتألف من الفونيمات الصامتة (ـــ *Consonant Phonemes)* الممثلة بالحروف «ر»، «ج»، «ل»، بالاضافة الى الفونيمات المجهورة *(Vowel Phonemes)* الممثلة بالفتحة والضمة بعد الفونيم الأول والثاني على التوالى، كما ان لها معنى معينا يمكن ان نمثله بالعناصر المعنوية الصغرى / بشرى /، / ذكر /، / بالغ /. أما «صبق» فانها، على ما أظن، وحدة فنولوجية **لاغير** في اللغة العربية، تتألف من الفونيمات الصامتة الممثلة بالحروف السكنة «ص»، «ب»، «ق»، بالاضافة الى الفونيمات المجهورة الممثلة بالفتحتين بعد الفونيم الأول والثاني على التوالى. ان قصدنا عندما نقول بأن «صبق» هي وحدة فنولوجية لاغير هو ان هذه الوحدة تتبع قواعد اللغة العربية الفنولوجية فقط دون ان يكون لها معنى في هذه اللغة، ولهذا فانه لا يصح ان نسميها «كلمة» أو وحدة قواعدية مهما كان نوعها. أو بعبارة أخرى، رغم ان «صبق» هي مجموعة من الأصوات التي تنتظم بسلاسل بصورة معينة مسموح

بها في اللغة العربية، الا انها ليست «كلمة»، بالمفهوم العادى لهذا المصطلح، نظرا لعدم احتوائها على معنى بهذه اللغة.

يفرد المؤلف الفصل الثالث من كتابه لدراسة طبيعة اللغة الانسانية، حيث يعرض للصفات التي تميز بصورة مجتمعة لغة الانسان عمّا يسمى احيانا «بلغة الحيوان»، «كلغة القردة» أو «لغة النحل»، مستنتجا بأن : «**اللغة الحقيقية» هي ظاهرة خاصة بالانسان**» (كتابه، ص 153). كما ويبحث المؤلف مسألة اذا كانت اللغة الانسانية طبعا أم تطبع، أو خليطا بين هذين الأمرين. وبعد نقاش طويل وممتع لهذه المسألة،يبين المؤلف، معتمدا على نتائج الدراسات اللغوية والبيولوجية، بأن الانسان يولد مزودا بمقدرة من نوع معين لاكتساب اية لغة من اللغات الانسانية، كما يذكر بأن هذه المقدرة، أو ما يشابهها، لا تمتلكها اى من انواع الحيوان الاخرى مهما بلغت درجة رقيها.

يبحث المؤلف في الفصل الرابع من الكتاب، علاقة اللغة بالمجتمع، شارحا لوظائف اللغة وعلاقاتها بالفكر والحضارة. كما يعطينا المؤلف في هذا الفصل نبذة سريعة عن العلاقة بين اللغة القومية واللهجات، وعن التفاعل بين اللغة وبعض العوامل، كالتباين الاجتماعي والسن والجنس والعرق البشري، رافضا في الحالة الأخيرة الفكرة القائلة بوجود أية صلة منطقية بين رقي الشعوب ورقي لغاتها، أو بين تخلف الشعوب حضاريا وتخلف لغاتها، هذا ان كان يصح أن نتحدث عن تخلف اللغات أو بدائيتها من وجهة نظر لغوية علمية.. ويختم المؤلف هذا الفصل باعطاء فكرة سريعة عن الكلام المحظور اجتماعيا، مشيرا إلى صعوبة الوصول أحيانا إلى الأسباب التي تجعل كلمة معينة، أو مجموعة من الكلمات، تصبح محظورة اجتماعيا في مجتمع لغوي معين.

أما الفصل الخامس والأخير، والذى يعالج فيه المؤلف، تركيب اللغة وانظمتها البنوية المختلفة، فانه يشكل — في رأيي — صلب موضوع الكتاب، وأهم فصل فيه بصورة مطلقة من الوجهة النظرية البحته لعلم اللغة الحديث. يبحث المؤلف في هذا الفصل، باقتضاب شديد يتماشى مع الهدف من الكتاب، أنظمة اللغة المختلفة : النظام الصوتي، النظامان الصرفي والنحوى، ونظام المعاني. ونظرا لأهمية مادة ومواضيع بحث هذا الفصل من الكتاب، فسوف اعالج أدناه بعض النقاط التي كان المؤلف قد اثارها في بحثه عن انظمة اللغة المختلفة المذكورة اعلاه.

يذكر المؤلف في حديثه عن النظام الصوتي في اللغة، الجوانب الثلاثة للأصوات اللغوية وهي جانب النطق، وجانب انتقال الأصوات في الهواء، ثم الجانب السمعي. وتنضوى هذه الجوانب جميعها تحت ما يسمى **بعلم الأصوات**، مشيرا إلى ان علماء اللغة قد ركزوا على الجانب الأول للاصوات الانسانية أكثر مما ركزوا على الجانبين الأخيرين.

كما يذكر المؤلف ان لعلم الأصوات «فرعان رئيسيان يتصل احدهما بالاخر اتصالا وثيقا». (كتابه، ص 258)، وهما علم الفوناتيكا *(Phonetics)*، وعلم الفونولوجيا *(Phonology)*، كما يحاول ان يوضح الفرق بين هذين الفرعين لعلم الأصوات. الا ان شرح المؤلف لهذا الفرق لا يتصف بالوضوح التام.. فيا حبذا لو افرد لنا المؤلف بابا أطول لهذا الموضوع، وخصوصا وان الكثيرين حتى من الطلبة الجامعيين في مراحلهم الأولى من دراسة علم اللغة، يجدون صعوبة في التمييز أو وضوح الفرق بين كل من علم الفوناتيكا وعلم الفونولوجيا. كما ويا حبذا لو اشار المؤلف في حديثه هذا الى أن الصلة التي يتحدث عنها بين العلمين المذكورين تختلف في طبيعتها وفي قوتها من مدرسة لغوية الى اخرى.. فمثلا، نجد ان هذه الصفة وثيقة للغاية عند — جاكبسون — *(Jackobson)*، بينما نجدها ضعيفة جدا عند — يلمسليف — *(Hjelmslev)* الدانماركي، الذي يكاد ان يجرد اللغة من اى مظهر مادي لها حين يعرف بها.

أما شرح المؤلف لوظائف وطريقة عمل اعضاء النطق البشرية، وايضا، لصفات الاصوات التي تصدرها تلك الأعضاء، فانه يتسم رغم جزالته، بالدقة واليسر. كما تميز هاتان الصفتان شرح المؤلف لاسلوب **المقابلة** الذي يستعمل بالاضافة الى اساليب ومعايير اخرى، في تحديد فونيمات اللغة في اغلب المدارس اللغوية. تلك المدارس التي تعترف باهمية الفونيم كوحدة فونولوجية. ويعتمد اسلوب المقابلة هذا على «مقدرة» الفونيم للتمييز بين الكلمات أو الوحدات الصرفية أو النحوية، دون ان يكون للفونيم نفسه معنى بالمفهوم العادى لمصطلح «معنى» على الاطلاق. ان هذه من أهم صفات الفونيم، ولكن رغم اشارة المؤلف الى اهميتها، الا أنه لم يضمنها تعريفه لهذه الوحدة والذي يقارب الى حد كبير جدا تعريف — جونز *(Daniel Jones)* لها.

يبحث علم الصرف في النظام الصرفي للغة عن طريق دراسة التركيب الداخلي لمفردات اللغة كوحدات لغوية ذات شكل ومحتوى أو معنى، وذلك بتحليلها الى المورفيمات التي تتكون منها، بالاضافة الى العلاقة بين هذه المورفيمات. يعرّف المؤلف المورفيم بأنه «اصغر وحدة لغوية ذات معنى يمكن ان تصلح اساس لتحليل جميع اللغات» (كتابه، ص 276). ان هذه النظرة الى طبيعة المورفيم يصعب توفيقها مع قول المؤلف في سياق آخر بأن بعض المورفيمات في بعض اللغات «ليس... لها معنى محددا اذا استعمل منفردا» كتابه، ص 288). وبعبارة اخرى، اذا كان

المورفيم حقا اصغر وحدة لغوية ذات شكل ومعنى مستقل، فكيف يمكن ان نطلق على وحدة لا معنى مستقل لها اسم مورفيم ؟

ويذكر المؤلف في معرض شرحه لمفهوم المورفيم، تقسيمه الى نوعين :

النوع **الأول** هو المورفيم الحر *(Free morpheme)* الذي «يمكن استعماله بحرية كوحدة مستقلة في اللغة» (كتابه، ص 276). والنوع **الثاني** هو المورفيم المقيد *(Bound morpheme)* الذي «لايمكن استخدامه منفردا بل يجب اتصاله بمورفيم حر أو مقيد آخر» (نفس الصفحة). ان هذا التقسيم الذي نظّره اللغوي ــ بلومفيلد ــ في كتابه **اللغة** *(Language)*، كان قد هوجم في عدة نواح من قبل العديد من اللغويين المحدثين، حتى يكاد لا يستعمل مطلقا في الدراسات اللغوية المعاصرة. فما المقصود مثلا بقولنا ان المورفيم الحر «يمكن استعماله بحرية كوحدة مستقلة في اللغة» ؟ وهل المورفيم المقيد هو مقيد دائما ؟ أم هو حر احيانا ؟ واذا كانت بعض المورفيمات المقيدة مثل *«ism»* في *«Structuralism»*، حرة احيانا، كما هو عليه الحال في الجملة التالية :

The author believes that every «ism» he uses enhances the value of his book.

فما أثر ذلك على تقسيم المورفيم الى نوعين : حر ومقيد ؟ ان هذه بعضا من الأسئلة التي اثارها علماء اللغة في بحثهم لتقسيم ــ بلومفيلد ــ لمصطلح المورفيم، وفي تطبيقه هو وانصاره لهذا التقسيم في الحديث عن بعض اللغات كاللغة الانجليزية مثلا.

وللصرف علاقة وثيقة بالنحو الذى يقول عنه المؤلف انه يبحث في «علاقات المفردات بعضها ببعض في الجمل المختلفة» (كتابه، ص 272). ومن الجدير بالتنويه هنا ان العلاقات النحوية لا توجد بين المفردات في الجمل فقط، بل توجد ايضا بين تراكيب نحوية أكبر حجما من «المفردات»، وبالمفهوم العادى لهذا المصطلح. يخصص المؤلف جزءا كبيرا من عرضه للنظام النحوي في شرحه بعض آراء ــ تشومسكي ــ التي كان قد قدمها في هذا المجال بدراسات عديدة، وخاصة في كتابيه الشهيرين **التراكيب النحوية** *(Syntactic Structures)*، الذي نشر لأول مرة سنة 1957، وكتاب **اوجه النظرية النحوية** *(Aspects of the Theory of Syntax)* الذي نشر لأول مرة سنة 1965. الا ان الشكل التالي الذى يعطيه المؤلف (كتابه، ص 307) لوصف المخطط العام لنظرية تشومسكي النحوية لا يتفق بصورة دقيقة مع هذه النظرية كما قدمها في كتابه **أوجه النظرية النحوية** :

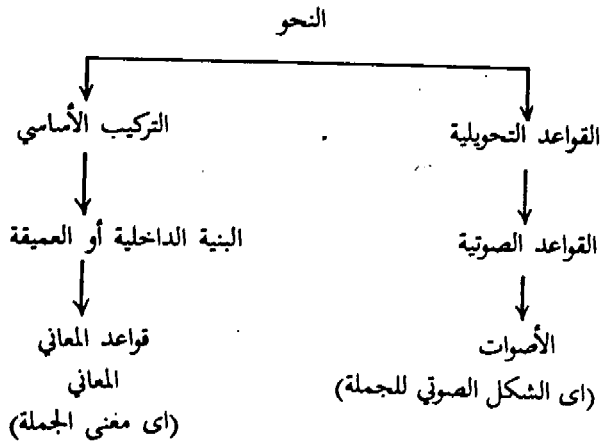

ان المؤلف لم يوضح لنا ماهية دلالة الأسهم بين القواعد التحويلية والتركيب الأساسي، كما أنه لم يبين لنا ما اذا كانت القواعد الصوتية وقواعد المعاني جزءا من النحو أم جزءا من التركيب البنوى للغة بصورة عامة، بالاضافة الى النحو طبعا. وعليه فانني اقترح ان يتم استبدال هذا الشكل الذى يعطيه ــ ليونز ــ *(Lyons)* في كتابه **تشومسكي**، (ليونز، ص 79)، والذى احيل القارىء اليه اذا اراد الاطلاع على محتوى اجزاء النظرية المختلفة والممثلة بالمربعات كالتالي :

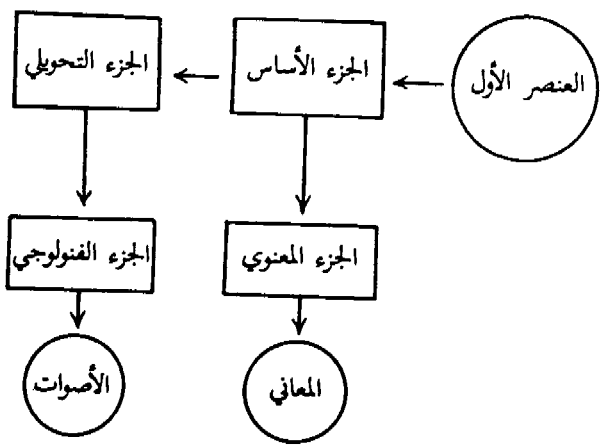

يشرح المؤلف في هذا الفصل أيضا، التطورات الحديثة في مدرسة تشومسكي اللغوية، كما يشرح الأصول العامة لعلم المعاني، مركزا على الدراسات التي اجريت في هذا الموضوع ضمن نظرية

تشومسكي. ونجد المؤلف هنا يميل الى الاقتضاب الشديد في عرضه لمواضيع بحثه، مما يجعل هذا العرض عسيرا على الفهم، وخاصة بالنسبة للقارىء غير المتخصص. ولا يمكننا ان نلوم المؤلف على ذلك نظرا لطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه، ونظرا للتطورات المستمرة والسريعة في دراسة هذا الموضوع، اى موضوع علم المعاني، وفي دراسة النحو ايضا. ان التطورات المعاصرة في دراسة النحو والمعاني، والتشبعات الكثيرة في مدرسة تشومسكي حديثا، هذه المدرسة التي هيمنت على علم اللغة الحديث منذ أواخر الخمسينات في هذا القرن، ويجعل مهمة دراسة آخر الافكار وتقديمها في هذين المجالين بالذات مهمة صعبة للغاية، خاصة وان بعض هذه الافكار كثيرا ما تكون قد طرحت جانبا، وتم استبدالها من قبل اصحابها، حين وصول البحث الذي نوقشت فيه هذه الأفكار، سواء على شكل كتاب أم مقال الى يد اللغوي المتخصص أو القارىء المهتم.

وفي حديثه عن نظام المعاني، يعرض المؤلف لنظرية — فودر — و — كاتس — *(Fodor and Katz)*، التي كانا قد اخرجاها في مرحلة الستينات من هذا القرن، والتي تهدف الى وصف معاني مفردات اللغة عن طريق تحليلها الى **عناصرها المعنوية الصغرى.** ويعطي المؤلف مثلا على كيفية عمل هذه النظرية ملخصا اياه في الشكل التالي : (انظر كتابه، ص 326)

رجل	امرأة	اسد	حلم
+ اسم	+ اسم	+ اسم	+ اسم
+ محسوس	+ محسوس	+ محسوس	− محسوس
+ معدود	+ معدود	+ معدود	+ معدود
+ حي	+ حي	+ حي	− حي
+ بشرى	+ بشرى	− بشرى	− بشرى
+ ذكر	+ انثى	+ ذكر	− ذكر
+ بالغ	+ بالغ	+ بالغ	+ بالغ

اما بخصوص اشارة (+) وناقص (−)، فان الأولى تعني بان الكلمة تحتوى على هذا العنصر المعنوى الصغير كأحد عناصرها المعنوية، اما الثانية فتعني بأن الكلمة لا تحتوى على هذا العنصر كأحد عناصرها المعنوية.

واذا القينا نظرة فاحصة على هذا الشكل، تبين لنا ما يلي :

1 — ان كلمة «حلم» لا يمكن ان تحتوى على عنصر / بالغ / كأحد عناصرها المعنوية الصغرى، وذلك نظرا لأن هذا العنصر لا يمكن ان يكون عنصرا في كلمات لا تشير الى كائنات حيّة، وخاصة كائنات حيّة حيوانية.

2 — ان وصف معنى كلمة «حلم» بالاشارة الى خلوها من عنصر / ذكر /، دون الاشارة الى خلوها من عنصر / انثى / الذى يثبته المؤلف في وصفه لمعنى كلمة «امرأة»، وصفا يتسم «بالاعتباطية» نظرا لان كلمة «حلم» تخلو من عنصر / انثى / لنفس الدرجة التي تخلو بها من عنصر / ذكر /.

3 — انه لا داعي لوصف كلمة «امرأة» باحتوائها على عنصر / انثى /، بل انه يكفي ان نصف هذه الكلمة بخلوها من عنصر / ذكر /. واذا فعلنا ذلك فاننا لا نستطيع ان نصف كلمة «حلم» بالقول بأنها تخلو من عنصر / ذكر /.

4 — وللخروج من هذا المأزق، يمكننا ان نستعمل اشارة «ضرب» (×) امام عناصر المعنى الصغرى للدلالة على ان هذه العناصر فائضة في وصف الكلمة أو الكلمات المقصودة، من وجهة نظر المعاني.

انه من العادة ان تستعمل **الاشكال الديكارتية** في وصف معاني كلمات اللغة بالاشارة الى عناصرها المعنوية الصغرى، نظرا لان هذه الاشكال تظهر المقارنة بين كلمات اللغة من حيث معناها بشكل سريع ومباشر. وفي هذه الاشكال تفرد الاجزاء العمودية للكلمات الموصوفة، والأجزاء الأفقية لعناصر المعنى الصغرى، أو العكس. فاذا استعملنا في هذا المجال شكلا ديكارتيا، بالاضافة إلى الاشارات الثلاث المذكورة اعلاه، لوصف نفس المثال الذى يَعطيه المؤلف، فان ما نصل اليه هو الشكل التالي :

	اسم	محسوس	معدود	حي	بشرى	ذكر	بالغ
رجل	+	+	+	+	+	+	+
امرأة	+	+	+	+	+	−	+
أسد	+	+	+	+	−	+	+
حلم	+	−	+	−	−	×	×

يتميز هذا الشكل عن الشكل الذى يعطيه المؤلف، والمثبت آنفا، كونه اسهل وأكثر اقتصادا، وذلك لأنه يتجنب ترديد عناصر المعنى أكثر من مرة حين وصف الكلمات من حيث معانيها، كما هو الحال في الشكل السابق، اضافة الى ان هذا الشكل يتفوق على سابقه بالشفافية والوضوح فيما يتعلق بالمقارنة بين معاني الكلمات.. ونظرة سريعة على هذا الشكل تكشف لنا ان الفرق في المعنى بين كلمتي «رجل» و «امرأة» يمكن في ان الكلمة الأولى تحتوى على عنصر المعنى الصغير / ذكر / بينما تخلو الكلمة الثانية منه. كما ان نظرة سريعة للشكل تكشف لنا بأن الفرق في المعنى بين كلمتي «رجل» و «امرأة» هو على نفس درجة الفرق في المعنى بين كلمتي «رجل» و «اسد»، رغم الاختلاف في عنصر

المعنى الصغير الذي يميز بين طرفي كل زوج من هذه الكلمات. واضافة الى هذه الملاحظات، فان هذا الشكل يكشف بسهولة لنا، ان الفرق في المعنى بين كلمتي «امرأة» و «اسد» اكبر من الفرق في المعنى بين كلمتي «امرأة» و «رجل».

خاتمة :

حاولت في الصفحات السابقة، ان أعرض لأهم النقاط في كتاب الدكتور خرما، متناولا بعضا بالتمحيص المقتضب. ان هذا الكتاب رغم بعض الانتقادات التي ذكرتها في معرض حديثي عنه اعلاه، فانه كتاب هام وممتع.. وقد اتصف اختيار المؤلف لمواضيع بحثه فيه بالحكمة والدراية، ويتميز اسلوبه بالسلاسة والانسياب في عرض وشرح هذه المواضيع. وعندى، لقد وفق المؤلف في تحقيقه لكثير من اهداف الكتاب التي ابتغاها، لذا لن نستغرب ابدا اذا رأينا هذا الكتاب وقد اعيدت طباعته مرات ومرات.

ان كتاب الدكتور خرما، كتابا مهما يستحق ان يجد له مكانا لائقا على رفوف المكتبات الجامعية، وعلى رفوف مكتبات المختصين والمهتمين بعلم اللغة الحديث.

المراجع

1. *Bloomfield, L : **Language,** George Allen & Unwin Ltd, London, 1976*
2. *Chomsky, N : **Syntactic Structures,** Juana Linguarum, No IV, The Hague, 1957*
3. *— — — — — : **Aspects of the Theory of Syntax,** Cambridge, Mass, 1965*
4. *Crystal, D : **Linguistics,** Penguin Books, Harmondsworth, 1971*
5. *Hjelmslev, L : **Prolegomena to a Theory of Language,** Madison, University of Wisconsin Press, 1953*
6. *Jakobson, R and Halle, M : **Fundamentals of Language,** 'Juana Linguarum, No I, 'S-Gravenhage, 1956*
7. *Jones, Daniel : **The Phoneme : Its Nature and Use,** Cambrigde University Press, Cambridge, 1976*
8. *Lyons, J :**Chomsky,** Revised Edition, Fontana/ Collins. 1981*
9. *Mulder, J W F and Hervey, S G J : **Theory of The Linguistic Sign,** The Hague, Mouton, 1972*
10. *de Saussure, F : **Course in General Linguistics,** ed by Charles Bally and Albert Sechehaye and translated from French by Wade Baskin, Fontana/Collins, 1974*
11. *Twaddell, F : **On Defining the Phoneme,** Language Monographs, No XVI, 1935*